



تعدّ سورية من أقدم البلدان المأهولة بالسكان في العالم؛ ولا جدال إن دمشق هي أقدم عاصمة في التاريخ. ويعيش على أرض سورية تجانس ديني، وعرقي، وطائفي، فلما نجده في الكثير من الدول، إذ يشكل المسلمون السنة ٧٠ في المائة من سكانها، وتشمل هذه النسبة الأكراد، والتركمان، والشراكسة، والأرناؤوط، ويشكل المسيحيون من طائفتي الروم الأرثوذكس والأرمن ١٤ في المائة، ويشكل العلويون ١٠ في المائة؛ والدروز ٣ في المائة؛ والإسماعيليون ٢ في المائة.

يقول المؤرخون: "إن أهل سورية كانوا قبل الإسلام خليطاً من الأديان والأعراق. وبعد الفتح الإسلامي أصبحت ولاية من ولايات الدولة الإسلامية، وبعد ذلك أصبحت دمشق مركز الدولة الإسلامية، وعاصمة الدولة الأموية. وكان الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- عين يزيد بن أبي سفيان والياً على الشام في عام ٦٥٠م، ولم يلبث أن خلفه أخوه معاوية بن أبي سفيان والياً على جزء من بلاد الشام. وفي عام ٦٥٦م عينه الخليفة عثمان بن عفان -رضي الله عنه- والياً على كامل بلاد الشام، وظل والياً عليها حتى أصبح الخليفة عام ٦٦١. فكان أول خلفاء بني أمية، واتخذ دمشق عاصمة له. وأسس حكماً وراثياً استمر من عام ٦٦١ حتى ٧٥٠.

سمي معاوية داهية العرب؛ لأنه استطاع أن يستميل أهل الشام، فعاضدوه في إدارة الخلافة. وكان عليه أن يسيطر على أحزاب المعارضة. وطور جهازاً إدارياً منظماً جعل مقره حول المسجد، الذي كان معبداً رومانياً يسمى معبد جوبيتر؛ حيث كان المسيحيون يقيمون صلاتهم في هيكله، بينما كان هو يصلي في زاوية فنائه قرب قصر الخضراء حيث كان يقيم. وقد كان معاوية حكيماً، تشهد على ذلك مقولته المشهورة: "لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت؛ إذا شدوها أرخيتها، وإذا أرخوها شددتها".

كان الأمويون يحترمون التعدد الديني والعرقي والمذهبي والطائفي، إذ كانت الدواوين والسجلات في عصر عبد الملك بن مروان تدون باللغات العربية، واليونانية، والفارسية، والقبطية، والسريانية، بحسب المناطق التي انتشر فيها الإسلام في ذلك العصر. وكان سرجون بن منصور يدونها بالرومية.

وعلى رغم انتشار الإسلام في أرجاء سورية ترك الأمويون الناس كلاً على دينه ومذهبه. إذ كان النصارى يدخلون من باب واحد مع المسلمين لأداء شعائرهم الدينية في الشطر المحاذي للمسجد الأموي، الذي كان منذ عهد الوثنية معبداً للشمس كما أسلفت؛ ثم تحول إلى كنيسة. ولما جاء الإسلام بفتح دمشق، شطراً بالسلم، وشطراً بالقتال والحرب، اختص المسلمون بشطراً، وبقي أهل النصرانية في الشطر الآخر. وارتأى المسلمون أن يتم التخاصص بينهم وبين أهل النصرانية، باستقلال المسلمين في مكان المسجد الأموي، بمقابل استقلال أهل النصرانية بالكنائس الأخرى.

خاضت بلاد الشام بعض الحروب الأهلية، أهمها تلك التي جرت بين عامي ١٢٣٧ و١٢٤٤؛ ولكن تلك الحروب لم تكن على أساس طائفي. كما ذكر المؤرخون أن أهل الشام كانوا يكرهون الحروب الطائفية التي كانت في بعض الأحيان تُفرض عليهم. ففي التاسع من تموز عام ١٨٦٠م اجتاحت جماعة من الرعاة المنطقة المسيحية من مدينة دمشق

الداخلية، سقط فيها المئات. فلجأ الآلاف من المسيحيين إلى بعض دور الأعيان من المسلمين، حيث احتموا بهم من غدر هؤلاء الرعايا، منها بيت آل العظم في حي القنوات. وقد اضطر الأمير عبد القادر الجزائري آنذاك- لتسليح ألف رجل لحماية المسيحيين. ثم دعا فؤاد باشا أعيان مدينة دمشق لاجتماع شأفة أولئك المحرضين على تلك الحوادث، وأمر بإعدام نحو ١٧٠ شخصاً من الذين أدينوا بأعمال القتل والتحريض والنهب.

في أواخر العهد العثماني كان هناك الكثير من الأحزاب السياسية التي تضم جميع أديان وطوائف السوريين، مثل: حزب الاتحاد والترقي، وجمعية الإخاء العربي، والجمعية القحطانية، وجمعية العهد، وحزب الإصلاح.

قامت الثورة السورية ضد الاستعماري الفرنسي بمشاركة قواد يمثلون جميع الطوائف في سورية، منها: ثورة اللاذقية بقيادة صالح العلي، وثورة الشمال بقيادة إبراهيم هنانو، وثورة رمضان شلاش في الفرات، والثورة السورية الكبرى بقيادة سلطان باشا الأطرش، وثورة غوطة دمشق التي اشترك فيها جميع الأديان والطوائف الدمشقية؛ مما اضطر الفرنسيين لإعلان الاتحاد السوري بين دويلاته عام ١٩٢٢م. ودفع سلطة الانتداب إلى إعلان الدستور عام ١٩٣٠م، وانتخاب محمد علي العابد أول رئيس للجمهورية السورية عام ١٩٣٢م، وبعد معاهدة ١٩٣٦م انتخب هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية، وظهر أول مجلس نيابي.

وبعد أن لجأت سورية إلى مجلس الأمن، صدر القرار بالجلء الفوري الذي تم في ١٧ نيسان/١٩٤٦م في عهد الرئيس شكري القوتلي.

في أعقاب انقلاب ٨/مارس/١٩٦٣م قام بعض الضباط بتشكيل عصبة طائفية سميت اللجنة الحزبية العسكرية، بقيادة صلاح جديد، ومحمد عمران، وحافظ الأسد. ثم في ٢٣/شباط/١٩٦٦م نفذ تحالف من الضباط الطائفيين انقلاباً على أمين الحافظ، آخر رئيس سني في سورية. ونفي ميشيل عفلق، ومعه ابن حي الميدان الدمشقي السني صلاح البيطار؛ لإلغاء دور الأحزاب في الحكم في المستقبل نهائياً. وفي عام ١٩٧١م أصبح حافظ الأسد رئيساً لسورية، بعد إزاحة صديقيه وابني طائفته؛ صلاح الجديد، ومحمد عمران.

نيقولاس فان دام سفير هولندا في مصر ألف كتاباً بعنوان: "الصراع على السلطة في سورية"، أوضح فيه كيف بدأت الطائفية السياسية في عهد حافظ الأسد، وما هي العوامل التي ساهمت في الولاءات الطائفية. فيما عزا الكاتب البريطاني "باتريك سيل" التطرف في الولاء للطائفة العلوية في كتابه "الصراع على الشرق الأوسط" إلى الحالة الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تعاني منها هذه الطائفة.